٣ المنطق

obeikandl.com

obeikandl.com

المنطق

إذا سمعت من يقول: إن المستشفى الفلاني « مجزرة» مستدلاً بعدم نجاح عملية جراحية أجريت لأحد أقاربه، أو حدوث وفاة غير متوقعة لأحد المنومين بالمستشفى فهناك احتمال كبير أن يكون هذا الشخص ضحية برمجة ذهنية تتبع المنطق القديم.

وعندما يُسَرّ شخص بشكل وثوقي لتعيين رجل بلغ «السبعين» في وظيفة كبيرة؛ لأنه نجح وهو في الأربعين في مسؤولية أخرى، فقد يكون هذا السرور من مخرجات المنطق القديم.

وإذا لم تستطع فهم كون أحد «الأتقياء» ممن اشتهروا بالورع والتمسك بالشريعة يمارس مداينات ربوية فربما يقدم لك المنطق القديم بعض التعليل.

اتهامات خطيرة للمنطق القديم! أليس كذلك؟

ما المنطق القديم؟ وهل هناك منطق حديث؟ بل ما المنطق أصلاً؟

كل ما سنحاول فعله في الصفحات القليلة المقبلة هو إثارة مجموعة من القضايا حول مسؤولية المنطق القديم عن انحرافات التفكير وأخطاء الأحكام، ومن ثم السلوكيات.

أرجو أن يتحمل القارئ الكريم رحلتنا القصيرة مع المنطق، فلعل المعرفة المكتسبة من هذه الرحلة تستحق الصبر.

كلمة منطق في العربية ترجمة لكلمة يونانية تعني عقل، ويقدم الدكتور عبدالرحمن بدوي في موسوعته الفلسفية تعريفات عدّة للمنطق أوضحها من وجهة نظري هو

obeikandl.com

تعريف «إيمانويل كنت»:

«نطلـق نحن كلمـة منطـق logic على علم القوانين الضرورية للذهن والعقل بوجه عام».

وتعـرف الموسـوعة العربية العالمية، المنطـق بأنه: «فرع من فروع الفلسـفة يعنى بقواعد التفكير السليم».

ويعـرف الدكتـور زكي نجيب محمود المنطق بأنه: «اسـتخراج للصور الشـكلية التي نظن أن تفكيرنا العلمي يسير على نهجها».

وقبل سـبعة قـرون عرف ابن خلدون المنطق في مقدمتـه بأنه: «قوانين يعرف بها الصحيح من الفاسد في الحدود المعرفية للماهيات والحجج المفيدة للتصديقات».

هنـاك اتفـاق بين مؤرخي العلـوم على أن المنطـق القديم قد بدأ مع الفيلسـوف اليوناني أرسطو، ويعتقد هؤلاء المؤرخون أن التفكير البشري قبل الحضارة الإغريقية كان يسير بطريقة فوضوية ومعظمه يستند إلى الخرافة والأساطير.

ويـرى بعض علـماء الإدراك في العصر الحاضر أن المنطـق ذو قيمة محورية لفهم عمل العقل وطرق الإدراك[١].

وقـد عرف أرسـطو في أدبيـات الحضارة الإسـلامية بالمعلم الأول، ربما بسـبب كونه أول من ابتدع علم المنطق.

يقوم المنطق الأرسـطي في أبسـط صوره وأكثرها أثراً عـلى القياس الذي يتكون من مقدمتين ونتيجة:

كل إنسان فانٍ	مقدمة كبرى
سعد إنسان	مقدمة صغرى
إذاً، سعد فانٍ	نتيجة «منطقية»

(١) انظر: **Mind Introduction to cognitive science second edition – parl thagard**

obeikandl.com

ثم تصبح النتيجة مقدمة لقياس آخر في سلسلة من المقدمات أو استنباط النتائج ولذلك يسمى هذا المنطق المنطق الاستنباطي.

ويطلـق عليـه أحيانـاً المنطق الصـوري نسـبة إلى الصـورة؛ لأنه يهتم بالشـكل (الصورة) ولا يسـأل عن المضمون، وهو ينسجم مع الحالة الفكرية التي كانت عليها أثينا من الاهتمام بالعقل المجرد والتأمل والترفع عن إجراء التجارب أو البحث العلمي.

وثق بهذا المنطق كثير من فلاسـفة الإسـلام، واسـتخدمه المتكلمون للدفاع عن معتقداتهم وإثبات بطلان معتقدات خصومهم.

وقـد تعـرض هذا المنطـق لمواجهات كـبرى في حضارتنا الإسـلامية كان بطلها الأول الإمام أبوحامد الغزالي، ثم جاء بعده شـيخ الإسـلام ابـن تيمية ليضع كتاباً في نقض المنطق من جذوره، وبعده ابن خلدون الذي وضع اللبنات في طريق بناء منطق جديـد، وفي العـصر الحديث توجـه عالم الاجتـماع العراقي الدكتور عـلي الوردي إلى كشف عورات هذا المنطق في كتب عدّة أهمها كتابه منطق ابن خلدون، الذي سنقتبس منـه كثيراً لتوضيح مبادئ المنطق الأرسـطي، ومنها يتضح مسـؤوليته عن انحرافات وتشوهات تفكيرنا حتى الوقت الراهن.

يرى الدكتور علي الوردي أن المنطق الأرسطي يقوم على ثلاثة مبادئ، هي:

١. مبدأ العقلانية.
٢. مبدأ السببية.
٣. مبدأ الماهية.

وباختصـار، **فمبـدأ العقلانيـة** يعني الاعتـماد المطلق عـلى الكليـات العقلية في الوصـول إلى الحقيقـة وعدم الثقـة بالمحسوسـات واعتبارها مضللـة، ومعروف عن فلاسفة اليونان تقديس العقل والشك في الحواس وازدراء العمل التجريبي.

obeikandl.com

أمـا السـببية فتقـول: إن جميع حوادث الكـون تخضع لقانون صـارم هو تعاقب السـبب والنتيجة أو العلة والمعلول، فالحوادث (بحسب عبارة الدكتور علي الوردي) وفق هذا المنطق لا تقع اعتباطاً أو من جراء إرادة واعية[١].

وعلى الرغم من أن هذا المبدأ يمثل بدهية يقر بها الجميع اليوم، ولكنه قاد بشكله المتطرف إلى عدم التصديق بأي شيء ليس له سـبب معروف، وأدى التمسـك المرضي بـه إلى إنكار بعـض الخوارق والمعجـزات التي أصبحت تدرس الآن بشـكل علمي، ولعلكـم تذكرون أن الإمـام أبا حامد الغزالي، قد أنكر السـببية، ونقضها من أصلها، وتبعه في ذلك الفيلسوف البريطاني ديفيد هيوم.

المبدأ الثالث من مبادئ المنطق الأرسـطي (بحسب تحليل الدكتور علي الوردي) هـو **مبدأ الماهية**، وهو أكثرها شـهرة لدى المتكلمـين، ويتضمن هذا المبدأ ثلاثة قوانين يسميها المناطقة قوانين الفكر، وهي:

أ- قانون الذاتية.

ب- قانون عدم التناقض

ج- قانون الوسط المرفوع.

وينص **قانون الذاتية** على أن الشيء هو هو، فله جوهر لا يتغير بمرور الزمن.

والقانون الثاني ينص على أن الشيء لا يجتمع فيه النقيضان، فهو إما حسن وإما قبيح.

أمـا **القانون الثالث** فينص على أنه لا وسـط بين النقيضـين، فالشيء لا يمكن أن يكـون غير حسـن وغـير قبيح في الوقت نفسـه، وكما يلاحـظ القارئ العزيـز أن هذه القوانين هي وجوه مختلفة لشيء واحد هو الماهية.

ظل هذا المنطق بمبادئه مسـيطراً على الفكر الإنسـاني قرابة ألفي عام على الرغم من المحاولات الجادة والرائعة لفلاسـفة الإسـلام العظام ومفكريـه، أمثال أبي حامد الغزالي وابن تيمية.

(١) راجع: فصل السببية في هذا الكتاب.

obeikandl.com

وحتـى نعرف مدى تغلغله في فكر المتكلمين واهتمام الناس به انظر إلى السـؤال الآتي الذي طرحه تلامذة ابن تيمية عليه، وكيف أجاب عنه في الفتاوى:

ما تقول في المنطق؟ وهل من قال: إنه فرض كفاية مصيب أم مخطئ؟

فقـد وصـل الأمـر ببعضهم إلى اعتقـاد وجوب تعلمـه على فريق من المسـلمين بوصفه فرض كفاية.

إذاً، فالمنطق القديم سـكوني (تظل فيه الأشياء سـاكنة غير متحركة) وثبوتي (لا تتغـير في ظله الأشـياء) وصـوري (يهتم بالشـكل دون المضمون) وحـدِّي (إما / أو) والوسط مرفوع.

باختصار يمكن عَدُّه منطق المتأملين في الأشكال الرياضية المجردة، ولا يتناسب مع واقع الحياة العملية المتغيرة المتحركة.

امتـداداً للمواجهـات التـي بدأها مفكرو الحضـارة الإسـلامية وفي بواكير عهد النهضـة الأوروبيـة بدأ الفلاسـفة الجدد، يتبرمون مـن هذا المنطـق، ويحاولون تطوير منطـق جديـد يلائـم تطـور الحيـاة ومتطلبـات العلـوم، ويعتقـد مؤرخو العلـوم أن الإنجليزي «فرانسـيس بيكون» صاحـب المذهب التجريبي الاسـتقرائي و«راموس» البروتستانتي الفرنسي «وليوناردو دافنشي» الفنان الإيطالي هم مؤسسو المنطق الحديث قبـل «ديـكارت» الفرنسي، ثم «هيغل» الألمـاني الذي نقض مبدأ الماهيـة بتطوير نظرية وجود النقيض داخل الشيء والصراع الجدلي بين الشيء ونقيضه في صيرورة مستمرة، ثم جاء الفلاسفة الإنجليز «وايتهيد» و«راسل» ليضعوا قواعد المنطق الحديث.

يرى الدكتور زكي نجيب محمود أن أهم الاختلافات بين المنطق الحديث والمنطق القديم هو أن المنطق القديم يتلمس خصائص الأشـياء في جواهر أنواعها، أما المنطق الحديث فيتلمس خصائص الأشياء في طرائق بنائها والعلاقات التي تربط أطرافها.

نعـود الآن إلى الأمثلـة التي اسـتفتحنا بها هـذا الباب والاتهامات التي سـقناها جزافاً للمنطق القديم، فدعونا نتعرف إلى أسباب هذه الاتهامات.

في البداية نحلل النتيجة التي وصل إليها «مصدر الحكم»:

الـذي أصدر حكماً بالفشـل على المستشـفى؛ لأنـه أخفق في معالجـة مريض أو حصل عنده خطأ طبي أدى إلى الوفاة أغلب الظن أن تفكيره سار على هذا الطريق:

المستشفى الذي يخطئ في علاج مريض مستشفى فاشل === (مقدمة كبرى).

المستشفى "س" أخطأ في علاج المريض "ع" === (مقدمة صغرى).

إذاً، المستشفى "س" فاشل === (نتيجة).

تزخـر مجتمعاتنـا ومقـار أعمالنا بهـذا النوع من المنطـق الذي يـؤدي إلى تعميمات مجحفـة وإلى أحـكام حدّية بعيدة عـن الواقع وغير مفيـدة في تصحيح الأوضاع، وكما رأينا في باب (تقدير الذات) كيف تهاجم مثل هذه الأحكام تقدير الإنسـان لذاته، وتؤثر على صحته النفسية.

وعلى خلاف المنطق القديم، ففي المنطق الحديث يمكن أن يسـير التفكير لمواجهة موضوع المستشفى على هذا النحو:

كم عملية جراحية أجريت في هذا المستشفى؟

كم نسبة نجاح هذه العمليات؟

كم تبلغ النسبة العالمية للنجاح في مستشفيات مماثلة؟

مقارنة بأعوام سابقة، هل ارتفعت نسبة النجاح أم انخفضت؟

ومن ثم يصدر «تقرير» وليس «حكماً» على مثل هذه الهيئة كالآتي:

obeikandl.com

«بينما ارتفعت نسبة نجاح العمليات في هذا المستشفى بمقدار (ن٪) عن العام الماضي، ولكن أداء المستشفى أقل من متوسط أداء المستشفيات المماثلة في العالم».

لاحظ أنه بدلاً من الوسط المرفوع إما فاشل أو ناجح، طورنا نسبة نجاح مئوية وبدلاً من «الماهية»: هو هو، اعترفنا بوجود تغير في أداء المستشفى مع مرور الزمن، وهكذا فقد استبدلنا بالمنطق القديم منطقاً علمياً حديثاً. لا شك في أن هذا المثال تبسيطي جدًّا ولكنه يصور حالة ذهنية سائدة ومدمرة، فالمنطق القديم يشجع على إصدار الأحكام، ومن ثم يسبب أذى لمصدر الحكم والمحكوم عليه، سواء كان إنساناً أو مؤسسة، وقد دلت الأبحاث السيكولوجية على الأثر المدمر في إصدار الأحكام وسلوكه بوصفه طريقة حياة.

مثالنا الثاني حول المسؤول أصبح واضحاً، إذ إن الناس غالباً (عندما تسير وفق المنطق القديم) تنظر إلى الأمور نظرة سكونية جامدة وبحسب قوانين الماهية، ففلان هو فلان، في وزارة «س» أو وزارة «ص» وفلان هو فلان وعمره ثلاثون أو عمره ستون، وفلان هو فلان في ظروف السبعينيات أو التسعينيات، وهكذا.

أما المثال الثالث فدعوني أذكر لكم واقعة شاهدتها بنفسي، يحضر أحد الراغبين في الاقتراض (قرضاً غير حسن بالطبع) إلى أحد الدكاكين في السوق، وهو على موعد مع المقرض وبينهما صاحب الدكان، ويتفقان على صفقة مؤجلة واضحة، ثم يتم تغيير شكل التعامل عن طريق وساطة بضاعة موجودة في مخزن قريب تستعمل باستمرار لهذا الغرض وبعد إتمام الاتفاق (الأساس) يخرج طالب القرض لمعاينة البضاعة، ويخرج له صاحب المخزن جزءاً منها للمعاينة (قد تكون أرزاً أو هيلاً أو قهوة) ويحركها المقترض قليلاً في المخزن.

ثم يعود للدكان، ويبيعها بثمن يقل قليلاً عن ثمن شرائها من المقترض.

صفقة ربوية خالصة بكل مقاصد الربا. ما الذي إذاً جعل أكثر أهل نجد مكانة اجتماعية ودينية يمارسون هذا النوع من التعامل دون تحرج؟

نعلم عن بعض الموسرين المتدينين أنه لو سمع صوت موسيقا لربما بلغ من كدره أن يعاف غداءه، وطار النوم من عينيه، ومع ذلك فهو يعود من هذا الدكان قرير العين بعد أن أتم صفقة المداينة الربوية. كيف نفسر ذلك؟

يعتقد كثير من الناس (وفق المنطق القديم) أنك إذا غيرت في الشكل فقد تغير المضمون، وقد يكون هذا بالضبط سبب رضا الناس بهذا الصنف من المداينة، استحداث وساطة سلعة تستعمل باستمرار ودون أدنى احتمال لاستلامها ونقلها والتصرف بها من قبل المقترض مع معرفة سعر بيعها بعد إتمام الصفقة وعدم وجود أي نوع من المخاطرة من المقرض، كلها تشي بأن العملية لا تختلف عن إقراض مالي مباشر، وإذا أمعنت النظر في المقاصد العليا لتحريم الربا سنجد عملية المداينة في «مضمونها» مطابقة لعملية الربا إن لم يكن بها ظلم إضافي بخصم قيمة البضاعة بعد إعادة بيعها لصاحب الدكان.

الممول لا يدخل في أي نوع من المخاطرة، فماله ولد مالاً دون عمل على الإطلاق، وصاحب الدكان يشبه البنك في وساطته بين ملاك المال والمحتاجين إليه، ومع ذلك فعندما تم تغيير الشكل بإدخال البضاعة الوسيطة استمرأت الأنفس هذا النوع من التعامل، وقرت به الأعين.

أحد أبرز أمثلة الأحكام الحدّية التي تطلقها ذهنية المنطق القديم تلك الآراء التي تصدر أحياناً في سياق نقد الحضارة الغربية، فهي عند بعض الكتاب (ظهر زيفها) كما لو كانت وثيقة أو انكشفت عورتها (كأنها فتاة ليل)، وعند بعضهم الآخر «الحضارة الوحيدة»، وهكذا تختزل عقلية المنطق القديم خمسة قرون من الخير والشر والإنجاز والإخفاق بعبارات حدّية سكونية.

ربـما أكـون قد حملت المنطق القديم أكثر مما يحتمـل، غير أني أتهمه بصناعة ذهنية حدّية شكلية سكونيه تؤثر بشكل سلبي في طرائق التفكير وإصدار الأحكام.

استدراكات:

أولاً/ المنطق القديم ليس شرًّا محضاً، لكنه في الغالب الأعم يؤدي إلى خلل في الوصول إلى الحقيقة، وأوضح مثال على إمكانية اسـتخدام المنطق القديم في مقولات رائعة، نذكر حديث المصطفى ﷺ الذي أوتي جوامع الكلم، عندما قال: «**كل مسكر خمر، وكل خمر حرام**» و «**ما أسكر قليله، فكثيره حرام**»، ففي هذين الحديثين المنطقيين إغـلاق جميـع أبواب التأويـل في شرب قليل الخمر، أو في اعتقـاد أن التحريم للكأس الأخيرة المسكرة، وهكذا.

ثانيـاً/ ليس بالـضرورة أن تكون الذهنية التي تسـير وفق المنطـق القديم واعية بالطريق الذي تسـير فيه، فقد تكون هذه البرمجة تشـكلت وفق بنيتها الثقافية وتربيتها الاجتماعية ومرجعيتها الفكرية، بمعنى أن الغالبية الساحقة ممن ابتلوا باستعمال المنطق القديم للوصول للحقيقة لم يدرسوا المنطق على الإطلاق.

تذكروا مثلاً ذلك السـؤال الذي نظنه مداعبة للطفل الذي لم يبلغ سن المدرسة، وهو في غاية الخطورة، حينما نسـأل أحد الأطفال: أيهما أحب إليك أمك أم أبوك؟ لا يعبـأ كثير منا بأثر مثل هذا السـؤال، وهو في الحقيقة يحفر أول سـطر في برنامج ذهني لهذا الطفل لتشكيل تفكير وفق المنطق القديم «إما / أو»، بنزعته الحدّية المتطرفة.

ثالثـاً/ منـذ منتصـف القرن الميلادي المـاضي، وبعد أن طورت آليـات وبدائل المنطـق الحديـث الـذي يقـوم عـلى العلاقـات بالدرجـة الأولى، ويؤمـن بالحركـة والصيرورة، شرعت مدارس التعليم العام تدرس هذا المنطق تحت اسم (الرياضيات الحديثـة) ودخلـت إلى المـدارس السـعودية في نهاية التسـعينيات الهجريـة، ونأمل أن تسهم في تشكيل ذهنية حديثة.

obeikandi.com

رابعاً/ ليس من السـهل تحديد الظـروف التي جعلت المنطق القديم يهيمن على طريقـة التفكـير في مجتمعاتنا العربية والإسـلامية، فهذا الأمر يحتـاج إلى بحوث كثيرة ودراسات معمقة، ويمكن للقارئ المهتم أن يطلع على مشروع مالك بن نبي أو محمد عابـد الجابري. ولعله مـن المفيد أيضاً الدعوة إلى عقد ندوات متخصصة لتتبع خيوط المنطـق القديـم في خريطـة العقل العربي المعـاصر في محاولة جادة لتأسـيس بنية صلبة لمنطق أكثر ذكاءًا وفاعلية في التعاطي مع الواقع المعقد.

obeikandl.com